Sudan Geographical Journal
مجلة السودان الجغرافية
Faculty of Geographical and Environmental Sciences, University of Khartoum- كلية علوم الجغرافيا والبيئة، جامعة الخرطوم
Volume 1 January 2017 Number 1

عرض كتاب (Book Review)

Peoples and Economies in the Sudan 1884 to 1956

(السكان والاقتصاد في السودان، 1884 إلي 1956، دراسة في الهجرة والسياسات)

G. Ayoub Balamoan

1- تعريف بالكتاب:

هذا كتاب صدر عام 1981من مركز جامعة هارفرد للدراسات السكانية، ما ساشيوستس، الولايات المتحدة الامريكية للمؤلف. أيوب بلا موان، وقد أثار حين نشره كثيراً من النقاش لأنه ناقش مواضيع متعددة والكثير منها مختلف عليه. إن صلب هذه الدراسات هو في موضوع تكوين سكان السودان وما ارتبط بذلك بشكل مباشر وغير مباشر، والنقطة المركزية في ذلك أن أكثر من نصف سكان السودان – حوالي 50 – 60% من المجموع هم من اصول لسكان غرب إفريقيا أو أنهم من أصول من سكان هاجروا من غرب إفريقيا في زمن سابق. وبالرغم من أن الكتاب صدر قبل خمسة وثلاثين عاماً فرأيت استعراضه لأن معظم النقاط التي أثارها من المواضيع المهمة التي تدخل ليس فقط في جغرافية السكان، ولكن أيضاً في السياسة والاقتصاد والاجتماع وفي النواحي الدينية وفي الهوية السودانية. اشتمل الكتاب على 510 صفحة، وتقع في سبعة فصول و45 جدولاً وشكلين و9 خرائط وعشر صور، وعدد كبير من الملاحق التي هي تقارير أومكاتبات بين بعض المسؤولين منهم حكام السودان العامين وبعضها صادر من أو إلى وزارة الخارجية البريطانية وبعض هذه التقارير والمكاتبات باللغة الفرنسية بالاضافه إلى التقارير الانجليزية الكثيرة.

كانت بداية فكرة الكتاب ما أختمر في ذهن المؤلف عام 1946 حينما سمع من والده وبعض المشتغلين بالشأن السوداني أن السودان عام 1905 كان شبه خال من السكان، ومع بداية سنوات"الفتح" ظلت أعداد كبيرة من سكان غرب افريقيا تهاجر إلى السودان، لعدد من الاسباب منها سهولة الحركة ومنها عوامل دينية ومنها طريق الحج. ومنها اسباب اقتصادية وللتحقق من تلك الفرضية قام المؤلف بالرجوع إلى كتب ومصادر أصلية هي التقارير التي كتبها المسؤولون والمكاتبات التي وردت بينهم، كما سافر إلى بلاد كثيرة في أفريقيا، وقابل عدداً كبيراً من العلماء داخل وخارج السودان. ومن ضمن الذين قابلهم وناقشهم كان برفسور لبون ومايكل بارير. فالأول كان رئيس قسم الجغرافيا في الخرطوم وله عدد من الأبحاث ومن ضمنها كتاب صغير عن الجغرافيا البشرية، وكتاب كبير عن استعمال الأرض في السودان أما الثاني فله عدة أبحات من أهمها كتابه عن الجغرافيا الاقليمية للسودان.

2-محتوى الكتاب:

احتوى الفصل الأول من الكتاب علي مواضيع كثيرة ترجع إلى العلاقات التاريخية بين السودان (upper Nile) ومصر منذ عهد الفراعنه ولكنه ركز علي فترة المهدية من عام 1885. وإلى عام 1898، وفي ذلك تحدث عن الحروب الداخلية للخليفة عبد الله، وحروب السودان مع أثيوبيا، وعن المجاعات ونقص الغذاء في السودان _ وبعض الأمراض التي نتج عنها انخفاض شديد في عدد السكان. لقد كانت معدلات المواليد ومعدلات الوفيات متقاربة – وكانت وفيات الرضع والاطفال مرتفعة جداً، ولذا كان النمو السكاني متدنياً، غير أن الحروب والمجاعات كلها كانت عوامل ادت إلى نقص اعداد السكان. الفصل الثاني وهو من أهم الفصول في تغير أعداد السكان في الفترة بين 1899 إلى 1956، وبه عدد من الجداول الدالة علي التغير في عدد السكان ومعدلات الولادة والوفيات والهجرة من غرب افريقيا،وفي الكتاب عرض جيد للاحصاء السكاني لعام 1955.

خصص المؤلف الفصل الثالث لسياسات السودان الديموغرافية، عوامل الجذب. أعاد المؤلف في بداية هذا الفصل قول غردون أن امتلاك السودان لن يكون له قيمة، وأيده في ذلك كولونيل استيوارد – غير أن كرومر كانت له وجهه نظر بها بعض التفاؤل. لقد كانت النقطة المركزية في هذا الفصل هي شعور الإدارة البريطانية أن هناك نقصاً في الأيدي العاملة – ولابد من العمل علي إيجاد وسيلة لتغطية ذلك النقص. ومن اسباب ذلك النقص هي أن عدد سكان السودان في بداية القرن كان قليلاً ربما أقل من مليون ونصف فرد. وكانت أجزاء كبيرة منهم لاتصلح للعمل أو لا يقبلون بالعمل الزراعي، مثال لذلك أن

الموارد في المديرية الشمالية أي الموارد الزراعية كانت قليلة ولذلك كان السكان يهاجرون من الشمال إلى مصر ويفضلون العمل هناك. أما في اجزاء أخرى من السودان فكان العمل الزراعي غير مقبول لان الرقيق هم الذين كانوا يقومون به، وبعد نهاية عهد الرقيق لم يرحب السكان بالقيام بالعمل الذي كان يقوم به الرقيق. ولحل مشكلة نقص الآيدي العامة كان الحل في استقدام مهاجرين من مصر واثيوبيا والهند والصين والبوسنه. وقد رفضت فكرة الهجرة من الهند أو الصين لارتفاع التكلفة. غير أن السودان استفاد من التخلص من المصريين الإداريين إذ أنه أصبح من سياسة حكومة السودان أن تحدث بعض التطورات في التعليم لتخريج مواطنين سودانيين يقومون بما كان يقوم به المصريون الإداريون.

أفرد الفصل الرابع للسياسات الديمغرافية والاقتصادية في شمال افريقيا والكنغو وتشاد ونيجريا وذلك لأن مثل تلك السياسات كانت متبعة من السودان – وكان المؤلف يريد أن يجري نوعاً من المقارنه بين ما هو في السودان وما هو في تلك الدول. واتبع المؤلف نفس الأسلوب في الفصل الخامس عن بعض الجنسيات الأخرى – من المصريين واليمنيين فقد كان هناك الكثير من الإداريين المصريين، ومعظمهم من القباط في مدينة عطبرة – ويعملون بالاساس في السكه الحديد إلى جانب بعض السوريين. أما الفصل السادس فخصص لقوانين الهجرة في السودان – والتي حددت في من هو السوداني ومن هو غير السوداني الذي يقطن السودان. وخلص الكتاب إلى أن الفرضية التي تقول بأن أكثر من نصف سكان السودان هم من أصول من سكان غرب افريقيا – ومن الاسباب التي ضخمت تلك النسبة هي الهجرات الكبيرة لسكان من غرب أفريقيا كانوا في طريقهم للحج أو الرجوع من الحج وكان متوسط العدد السنوي للمهاجرين إلى السودان بين عام 1905 وعام 1956 كان حوالي 125000 فرد رجل وامراة وطفل. أثار المؤلف في الفصل السابع الكثيرا من الأسئلة التي ترتبط بالهوية السودانية وموانئ الدخول للسودان والوضع القانوني للسوداني في الامبراطورية البريطانية وغيرها ،كما أشار في هذا الفصل إلى المناخ وتغيره منذ القدم ونتائج أو أثر ذلك في إحداث المجاعات مشيرا إلى بعض الكتابات الفرعونية عن فشل فيضان النيل وما تبعه من مجاعات

3– خلاصة :

لقد استعرض الكتاب العديد من النقاط المهمه التي تقع في مجالات عديدة، منها التاريخية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية، ولكنها تصب في مجالات النمو وتركيبية السكان في السودان من نهاية القرن التاسع عشر عام 1956 والنتيجة التي توصل اليها أن أكثر من نصف سكان السودان من أصول من غرب أفريقيا ولكن تلك النتيجة كانت صادمة لكثير من السكان في السودان ومن العلماء علي حد سواء وخاصة أن تعداد عام 1956 بيّن أن نسبة السكان الذين هاجروا من غرب افريقيا كانت أقل من عشرة في المئة من سكان السودان.

رفض ونجت باشا الهجرة لأن الهجرة من الهند أو الصين كانت تكلف الكثير من المال. أما البوسنه فإن المناخ لا يناسبهم. وقد كان هناك عدد من الاحباب ضد قبول الفلاحين المصريين وذلك بالاضافة إلى أنه كانت هناك خشية من قبول الزراع المصريين إذ أن، العمل الزراعي قد يقود إلى استقرارهم في السودان. ولكن استعمل الجيش المصري – من ابناء الفلاحين في بناء السكة الحديد وفي حفر قنوات الجزيرة وفي المكاتب الإدارية واستمر النقاش حتى عام 1919 – إذ كان هناك استياء عام من الفلاحين المصرين ضد الإنجليز في مصر. ولذا رفضت فكرة استدعاء الفلاحين – ثم جاء بعد ذلك في نوفمبر 1929 قتل السردارلي استاك في القاهرة ولذا كان القرار الإنجليزي أن يرحل الجيش المصري من السودان والاستغناء عن الكثير من المدنيين المصريين العاملين في السكة الحديد وفي الإدارة وفي غيرها. ولذا فقد طلب من المصرين ومن اشباههم "Contaminated" الرحيل من السودان ولذا فرحل حوالي 400,000 فرد وبذلك طويت فكرة الاستعانة بالعمالة المصرية واتجهت الأنظار إلى العمالة من غرب أفريقيا.

وقيل في ذلك أنهم أنسب العمال للعمل الزراعي في السودان. كذلك ذكر المؤلف ص (169) أنه كان هناك سياسة عالمية في الإدارة البرطانية من حماية حقوق المهاجرين من غرب أفريقيا أن يأتوا إلى السودان. وكمثال لذلك أنه عام 1920 طلبت الإدارة الفرنسية إرجاع اللاجئين من سكان الكنغو الفرنسية الذين يسكنون في مديرية بحر الغزال، ولكن رفض ذلك الطلب من الحكومة البريطانية حتى لا تكون هناك سابقة لارجاع اللاجئين إلى النطاق الفرنسي. لقد كانت الإدارة البرطانية تنظر إلى الفرد العامل الذي يهاجر من غرب أفريقيا – أنه شخصية اقتصادية "economic man" – أكثر من الرجل من شمال السودان ص (169). ولذلك كان من سياسة إدارة مشروع الجزيرة ان تخصص لبعض المهاجرين من غرب أفريقيا حواشات مساحة كل واحدة منها 40 فدان لزراعة عشرة أفدنة منها قطن – وتقدم لهم سلفيات للعمليات الزراعية والري مجاناً (ص 161). وكذلك عمل المهاجرون من غرب افريقيا في الزراعة في دلتا نهر القاش ودلتا خور طوكر (بركة). كما انتشروا في قرى على شواطئ النيل الأزرق من سنار جنوباً. وعلي الرغم من أن المهاجرون من غرب أفريقيا عملوا في الزراعة وفي اقتصاد السودان بشكل عام فإنه كان هناك بعض التخوف منهم. وذلك لأن بعضهم لم يكن منتجاً أما للمرض وأما لعدم وجود وظيفة له – كما إنهم كانوا في نظر السودانيين يحملون بعض الأمراض

البشرية أو أمراض الحيوان، كما أن بعضهم كان متفلتاً من ناحية القانون.

في غياب الإحصاءات الدقيقة عن الهجرة الداخله إلى السودان فليس أمام الباحث إلا اللجوء لظواهر مشاهدة تساعد علي التحقيق من تلك النتيجة وأهم هذه الشواهد هي توزيع السكن، وخاصة السكن الريفي وفي تلك الحالة يشاهد الدارس أن هناك في كل السودان تقريباً قرى معظم سكانها من سكان غرب افريقيا. وأن امثال تلك القرى تنتشر ابتداءً من مدينة مدني حتى مدينة الدمازين وما بعدها – خاصة علي الجانب الأيسر من النيل الأزرق فعدد القرى كبير والكثافة السكانية عالية ومنها التجمع الكثيف في مايرنو ثم هناك القرى الكثيرة علي نهر القاش– داخل مدينة كسلا وفي الدلتا وكذلك علي خور طوكر والدلتا. ثم هناك الكثافة العالية جداً في إقليم القضارف وتنتشر القرى التي يسكنها السكان من غرب افريقيا علي ولايات النيل الابيض وولايات كردفان ودارفور خاصة في الاجزاء الجنوبية منها. والشاهد من هذا أن المهاجرين من غرب افرقيا لعبوا دوراً مهماً في العمل في الزراعة المرويه والزراعة المطرية، وحديثاً يلاحظ أن لسكان غرب افريقيا دوراً مقدراً في العمل بالتعليم العام وفي الجامعات ومنهم علماء يمكن أن يشار اليهم بالبيان. ومن هنا يمكن ان نقول أن جزءاً مقدراً من سكان السودان هم من أصول من غرب أفريقيا، ولكنها قد تقل عن خمسين في المئة، غير أنها بالتاكيد نسبة تفوق بكثير النسبة التي ظهرت في إحصاء 1956/1955. وعلى أية حال الموضوع قابل للدراسة العلمية والتي ينبغي ألا تتأثر بعوامل ذاتية.

أ. د./ مصطفي محمد خوجلي
كلية علوم الجغرافيا والبيئة
جامعة الخرطوم
ديسمبر 2016م